

الصدقة في القرآن



الصدقة في الإسلام:

في الإسلام هناك اهتمام كبير بتركيز العلاقات الإنسانية على أساس ثابت يخدم عقل الإنسان وقلبه وحياته، لأنّ علاقة الإنسان بالإنسان تترك تأثيرها على الكثير من جوانب حياته الداخلية والخارجية، باعتبار أنّ طبيعة العلاقة تخلق جوّاً من الألفة والمحبة والحميمية بما يجعل الإنسان ينجذب إلى الآخر انجذاباً عقلياً وشعورياً. ولهذا فقد تحدّث الإسلام في الكتاب والسنة عن مسألة الصداقة فيما يحتاجه الإنسان إلى هذه العلاقة، باعتبار أنّ الصداقة تمثّل الإنسان في الصديق الذي يساعد الإنسان ويعاونه ويكون موضع سرّه وأمانته وأنسه، لأنّ الإنسان لا يطيق الوحدة بل يحبّ أن يعيش مع الآخر لأنّه اجتماعيٌّ بالطبع.

وربّما كانت علاقة القرابة لا تملأ كلّ ذات الإنسان، فقد يحتاج إلى من يكون قريباً له في العقل وفي الروح، ممّن يمكن أن تكون قرابته أكثر من قرابة النسب، لأنّ قرابة النسب تمثل هذا التواصل في الآباء والأجداد، وربّما لا يحمل التواصل بين هؤلاء في داخله تواصل العقل بالعقل والقلب وبالقلب والروح بالروح، ففي الحديث عن الإمام عليّ (ع): "ربّ أخٍ لك لم تلده أمك".

وعلى ضوء ذلك، ولخطورة تأثير الصديق في الصديق، أراد الله من الإنسان أن يعرف كيف يختار صديقه؟ وقد تحدّث الله سبحانه وتعالى عن الصداقة بشكلها الإيجابي كما تحدّث عنها بشكلها السلبي في كتابه المجيد. أمّا الصداقة في شكلها الإيجابي فهي الصداقة المبنية على التقوى، وهي أن تصادق الإنسان الذي يعيش تقوى الفكر فلا يفكّر إلاّ حقاً، وتقوى القلب فلا ينبض قلبه إلاّ بالخير، وتقوى الحياة فلا تتحرّك حياته إلاّ في الخط المستقيم. وإذا كان الإنسان تقيّاً فلا بدّ أن يكون ناصحاً لصديقه لأنّ الدين النصيحة. ولا بدّ أن يكون الوفيّ لصديقه لأنّ الوفاء يمثّل عنصراً من عناصر الإيمان، وإذا كان الإنسان تقيّاً فلا بدّ أن يعين صديقه وأن يساعده وينصره وأن يؤثّر على نفسه لأنّ ذلك من عناصر أخوة الإيمان. ولهذا حدّثنا الله سبحانه وتعالى أنّ صداقة التقوى تتحرّك في الحياة لأنّ علاقة مبنية على التقوى هي علاقة تبدأ بالله وبرسوله وبأوليائه، وترتكز على قاعدة الإسلام في عقائده كلّها وشرائعه ومناهجه وأهدافها، فما دمت مسلماً تقيّاً فإنّ هذه هي العروة الوثقى التي لا تنفصم لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان الذي يسلم وجهه لله وهو محسن المستمسك بالعروة الوثقى.

ثمّ يحدّثنا الله سبحانه وتعالى عن أنّ هذه الصداقة سوف تستمر إلى الآخرة، لأنّ صداقة الدنيا التي تتركز على قاعدة الإيمان بالله وتقواه تجد مكانها الرجب في الآخرة، لأنّ الآخرة هي مواقع رضوان الله ونعيمه. وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة (الأخلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

إِلَّا الْمُتَّقِينَ (الزخرف/ 67). فالمتقون هم الذين تبقى صداقتهم وخلصتهم خالدة لأنها انطلقت من الموقع الثابت فلا زوال لها بالموت بل تمتد لتكون حياة المحبة في الدار الآخرة كما كانت حياة المحبة في دار الدنيا.

الأصدقاء في الآخرة:

ويحدثنا □ سبحانه وتعالى عن هذه الصداقة في الآخرة، وذلك عندما يلتقي أصدقاء التقوى وأصدقاء الإيمان في الجنة: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ) فقد جاءوا إلى الآخرة وليس في قلوبهم أي حقد، بل كانت المحبة تغمر قلوبهم، لأن محبة الإنسان □ تجعله يحب الناس الذين يلتقي بهم ليتعاون معهم، ويحب الناس الذين يختلف معهم ليهديهم، ولذلك فإن تكون مؤمناً يعني أن تغمر المحبة قلبك فلا مكان للحقد فيه. وهذا ما تعلّمناه من رسول □ (ص) عندما كان يواجه قومه وهم يؤذونه وهو يقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون". فالذين لا يحملون الغل في قلوبهم هم الأتقياء حقاً، الذين يحدثون □ سبحانه وتعالى فيحبون خلقه "الخلق عيال □ فأحب الخلق إلى □ من نفع عيال □ وأدخل على بيت سروراً".

(إِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُورًا مُتَقَاتِلِينَ) (الحجر/ 47). متحابين، يعيشون سعادة الإيمان ورضوان □ (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) (التوبة/ 72).

مَن نصادق؟

ونرى أن القرآن أيضاً يؤكد على المجتمع الذي تصادقه وتعيش معه، فمن هم هؤلاء الذين تعيش معهم وتصادقهم؟ (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ) والحديث هنا مع رسول □ (ص) و□ سبحانه وتعالى يخاطب الناس بأسلوب خطابه للرسول (ص) ليعرف الناس أهمية هذا الخطاب، لأن □ إذا كان يطلب أمراً من رسوله (ص) وهو حبيبه وأقرب الخلق إليه، فكيف لا يطلبه من الناس؟ فمعنى ذلك أن لهذا الأمر أهمية بالغة عند □ سبحانه وتعالى. (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28). أي صادق الذين يخلصون □ ويعبدونه ويبتهلون إليه ويخلصون له لأن هؤلاء هم الذين يزيدون إيمانك، وهم الذين يحفظون لك ودك ويفون لك الوعد والعهد.

قيمة الصديق:

ويحدثنا □ سبحانه وتعالى عن قيمة الصديق من خلال نداء أهل النار عندما يدخلونها.. ما هي استغاثتهم هناك؟ (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَادِقِينَ حَمِيمٍ) (الشعراء/ 101-100)، ومعنى ذلك أن الصديق الحميم هو الذي يفي لك، وهو الذي يعينك، حتى أن أهل النار يتلفنون يميناً ويساراً ويتطالعون إلى من كانوا يصادقون من أمثالهم فلا يرون أحداً، فيتساءلون: أين هو الصديق الحميم؟ فهم يعرفون أن صداقة غير المؤمنين صداقة لا تركز على أساس، فهي لا تمتد بأصحابها إلى الآخرة (الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (الزخرف/ 67).

أصدقاء السوء:

ويحدثنا □ سبحانه وتعالى عن الأصدقاء في الجانب السلبي، هؤلاء الذين يعيش الإنسان في الآخرة في حسرة من صداقته لهم، فسبحانه وتعالى يقول: (وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ) (الفرقان/ 27)، والمراد

بالظالم الذي ظلم نفسه بالكفر أو بالضلال والمعصية (عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي) اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (الفرقان/ 27). يا ليتني عشت في خط الرسول (ص) وكان لي طريق إليه وإلى رسالته فيما تمثله من الهداية إلى [يا وَيَلَاتِي] فينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور (لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ وَلَانًا خَلِيلاً) (الفرقان/ 28). أي ليتني لم أتخذ فلاناً صديقاً. وتساءله: ماذا فعل بك فلان؟ فيجيبك (لَقَدْ أَضَلَّ سَبِيلَ اللَّهِ الَّذِي كُنتَ تُبْعَدُ بِهِ إِذْ جَاءَكَ مِنَ رَبِّكَ الْفُرْقَانُ/ 29)، فلقد جاء ذكر [يا] على لسان رسول [يا] (ص)، وكان عقلي منفتحاً عليه، وكان قلبي منفتحاً عليه، وجاء هذا الرجل فكان حاجزاً بين عقلي وذكر [يا] فانحرف بعقلي عن مساره الطبيعي، كما انحرف بقلبي عن مساره الطبيعي. ثم عندما واجهت الموقف المصيري خذلني (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لَئِيمًا) (الفرقان/ 29).

ويجدُّ لنا [يا] سبحانه وتعالى عن طريقة الشيطان في التسويل للإنسان وخذلانه فيقول: (كَمَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (الحشر/ 16). وفي يوم القيامة يقف الشيطان في المحشر ويندفع الناس ليقولوا يا ربنا لقد أضلنا الشيطان فحملنا المسؤولية، ولكن الشيطان يتحدث بطريقة أخرى ليدافع عن نفسه وليحملهم المسؤولية، ولكن الشيطان يتحدث بطريقة أخرى ليدافع عن نفسه وليحملهم المسؤولية كاملة (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ) (إبراهيم/ 22). فقد قال لهم (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران/ 133). وها أنتم ترون المتقين كيف يسرون إلى الجنة (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ) (إبراهيم/ 22). لأن مهمتي هي أن أعد فاخلف، وأن أوسوس، وأزيِّن القبيح وأقبح الحسن، لأنَّ العداوة قد نشأت بيني وبينكم منذ أبيكم آدم وأمكم حواء، وقد قال لكم [يا] (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ) فماذا يصنع العدو مع عدوه؟ ينصحه أو يغشه؟ (فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّهُمْ يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (فاطر/ 6). فقد أنزل [يا] في كتابه (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) (إبراهيم/ 22). (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (الحجر/ 42). (فَلَا تَلْمِزُوهُنَّ) فمنذ البداية (قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَعْبُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَاتَيْدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف/ 16-17). فوظيفتي وهدفي كانا منذ البدء واضحين، فلقد أردت بغوايتكم التنفيس عن حقدِي وثأري من أبيكم آدم. (وَلَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ) فلقد أعطاكم [يا] عقلاً وأرسل لكم رسلاً وأعطاكم إرادة وهداكم النجدين، فلماذا لم تنطلقا في طريق الجنة بل انطلقتم في طريق النار وأنتم تعرفون أن حزبي هو حزب أهل النار (مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ) فلو أنكم صرختم لما أغثتكم (وَمَا أَنَا بِمُفْرِحِكُمْ) ولو صرخت فلن تغثوني، فلكل امرئ يومئذ شأن يغنيه (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي) (إبراهيم/ 22). فانا أكفر بشرككم بأن تجعلوني شريكاً [يا] تعالى.

ومن خلال ذلك كلاً، نجد أن هذه الآية تعطي وحياً لأحاديث كثيرة، فهناك حديث للرسول (ص) يقول فيه: "المرء على دين خليله، فلينظر أحداكم من يخال". باعتبار أنه يأخذ من دينه من جهة المؤثرات التي تؤثرها الخلقة والصدقة في نفس الشخص الآخر، فإذا أردت أن تصادق فعليك أن تدرس دين من تصادقه حتى تعرف أن من تصادقه لن يضلَّك عن دينك، بل قد يقوِّي لك دينك. والصدقة أيضاً وسيلة من وسائل الحكم على الأشخاص، فإذا أردت أن تحكم على شخص سواء كان هذا الحكم إيجابياً أو سلبياً فما هي القاعدة التي تركز عليها في الحكم عليهم؟ فعن سليمان بن داود: "لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب". أي قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، فإنما يعرف الرجل بأشكاله وألوانه لأن كل شكل لشكله ألف.

وجاء في الحديث عن الرسول (ص) أيضاً: "اختبروا الناس بإخوانهم". أي بأصدقائهم فالخدين هو الصديق فإنما يخادن الرجل من يعجبه. وهذه الأحاديث تؤكد على أن الصداقة تنطلق من المشكلة، فإنك عندما تنجذب إلى شخص إنما تنجذب إلى خصائصه لأنَّها تلتقي مع خصائصك، ولأنَّ عناصره تلتقي مع عناصرك.

فعن الإمام عليٍّ (ع): "النفوس أشكال فما تشاكل منها اتفق، والناس إخوان، فمن كانت أخوتك في غير ذات [يا] فإنَّها تحوز عداوة" وذلك قوله تعالى: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) (إلا الْمُتَّقِينَ) (الزخرف/ 67).

ويجدُّ لنا القرآن الكريم عن قرين السوء عندما تحين ساعة الحساب أو العذاب (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتُنذِرَ لِمَنَ الْأَمْمُ صَدِّقِينَ) (الصفات/ 51-52)، أي أن هذا الرجل عندما كان في ساعة الحساب أو عندما أدخل النار أراد أن يجد لنفسه عدواً فقدَّم تقريراً عن خلافيات كفره باليوم الآخر. فهذا القرين كان يقول له هل تصدِّق هذه الخرافة؟ وأية خرافة؟ (أَتُنذِرُ مِتْنًا وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَتُنذِرُ لِمَن بَدِعُوا نُورًا) (الصفات/ 51-52).

16)، أي هل أزننا إذا متنا سوف ندان ونحاكم ونجازي؟ (قَالَ هَلْ أَرْتُمُّ مُطَّالِعُونَ) (الصفات/ 54)، أي ترون القرين؟ (فَاطِّلَاعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) (الصفات/ 55). فلتختر أصدقاءك من أهل النعيم لا من أهل الجحيم فإنما يعرف الناس بالإيمان وبالعمل الصالح.

ويحدثنا القرآن عن مشاعر الإنسان يوم القيامة عندما يري قرين السوء (قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّسِقَ الْقَرِينُ) (الزخرف/ 38). فياليتني لم أراك، وياليت المسافة بيني وبينك كانت من البعد بحيث لا أراك فاذا كيف كنت توسوس لي وتضللني حتى وصلت إلى هذا المصير المحتوم في نار جهنم. ويحدثنا □ سبحانه وتعالى عن موقف قرين السوء عندما يبدأ الحساب، وقد قدم الإنسان إلى المحكمة بين يدي □ فيحاول هذا الشخص أن يقدم عذره ليحمل قرينه الذي كان إلى جانبه مسؤولية ضلاله (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ) فأنا لا أتحمل المسؤولية (وَلَكِنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ بِعِيدٍ) (ق/ 27)، فهو سيئ ولا دخل لي في اجتذابه لي، فما ضغطت عليه ولا أكرهته على ذلك، فهو صاحب عقل يفكر؟ (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) (ق/ 28)، فقد صدر الحكم (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) (ق/ 28-29). □ سبحانه وتعالى يحدثنا عن الأشخاص الذين يحيطون به وهم قرناء السوء (وَقَرِينًا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَرِيضُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) (فصلت/ 25). صحيح أن □ سبحانه وتعالى ينسب الأمر إلى نفسه في هذه الآية، ولكن ليس معنى ذلك أنه أرسل إليهم قرناء السوء ولكنهم عندما يتحركون من خلال ما أعطاهم □ من إرادة واختيار فإنهم يتحملون مسؤوليتهم في اختيار قرنائهم. وهكذا فإن □ سبحانه وتعالى من خلال ذلك أن نختار القرين الذي يمكن له أن يعيننا على الطريق الصحيح بدلاً من القرين الذي يعيننا على الطريق المنحرف.

اختبار الصديق:

ويحدثنا الإمام الصادق (ع) عن بعض العلاقات التي يختبر فيها الإنسان صديقه "مَنْ غَضِبَ عَلَيْكَ مِنْ إِخْوَانِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَقُلْ فِيكَ شَرًّا فَاتَّخَذَهُ لِنَفْسِكَ صَدِيقًا". فقد تحدث بين الأصدقاء مشاكل وخلافات تجعل أحدهما يغضب من الآخر لكنه يبقى على خط المودة فلا يحاول أن يتكلم عنك بالشر، فإذا حصل ذلك لمرات ثلاث فاعتبره متوازناً وأنه يملك قاعدة أخلاقية فلا يدفعه غضبه إلى أن يقول ما ليس له بحق.

وقد ورد في الحديث عنه (ع): "لا تسم رجلاً صديقاً سمة معروفة حتى تختبره بثلاث. فتنظر غضبه يخرج من الحق إلى الباطل، وعند الدينار والدرهم". أي هل يبقى حليماً عند الغضب فلا يتنكّر للحق وللحقيقة؟ وهل يخونك أو يكون أميناً على الدينار والدرهم، بحيث يبيع صداقته لك في مقابل دراهم معدودات؟ فقد لا تكون عنده قيمة للدينار والدرهم بل القيمة عنده في الصداقة "وحتى تسافر معه". لأن السفر يمثل التعب الذي ربما يخرج الإنسان عن توازنه، فإذا بقي في خط التوازن فإن معنى ذلك أنه ينطلق من قاعدة أخلاقية رصينة.

أصدقاء إيجابيون:

وقد ورد في الأحاديث عن الذين نتخذهم أصدقاء. فعن الصادق (ع) "إصحب من تنزيين به ولا تصحب من ينزيين بك". أي صاحب من تستفيد منه ومن يكون في صحبتك له زينة لك من خلال علمه وأخلاقه، لا الشخص الذي لا تستفيد منه وهو يعتبر نفسه صديقاً لك ولكنه ليس في مستوى الصداقة.

ومن مواضع الإمام الحسن بن علي (ع) في آخر لحظات حياته قال لجنادة في مرضه الذي توفي فيه: "إصحب مَنْ إِذَا صَحِبْتَهُ زَانِكٌ وَإِذَا خَدَمْتَهُ صَانِكٌ، وَإِذَا أُرِدْتَ مِنْهُ مَعُونَةً أَعَانِكُ، وَإِنْ قُلْتَ صَدَقَ قَوْلُكَ، وَإِنْ صَلَّتْ شِدَّةً صَوْلَكَ". في الدفاع عن نفسك "وإن مددت يدك بفضل مدّها، وإن بدت عنك ثلثة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتدأك، وإن نزلت إحدى الملمات به ساواك".

وعن علي (ع): "أكثر الصواب والصلاح في صحبة أولي النهى والألباب". وعنه (ع): "صاحب الحكماء". بحيث يعطيك الصديق الحكيم من حكمته حكمة "وجالس الحكماء". وهم الذين يملكون سعة الصدر فالطبع يكتسب من الطبع "وأعرض عن الدنيا تسكن جذّة المأوى". وعنه (ع): "عجبت لمن يرغب في التكثير من الأصحاب كيف لا يصحب العلماء الألباء الأتقياء الذين يغنم فضائلهم، وتهذّب به علومهم، وتزيّن به

صحبتهم". وقال (ع): "من دعاك إلى الدار الباقية". أي انفتح بك على الآخرة "وأعانك على العمل". الذي يرضي الله سبحانه وتعالى "فهو الصديق الشفيق". لأنّه هو الذي يؤدّي إلى نجاتك وحسن سلامة مصيرك.. وعنه (ع): "قارن أهل الخير تكن منهم". أي اقترن بهم صاحبهم "وبين أهل الشر". أي ابتعد وافترق عنهم "تب عنهم". حتى تكون مختلفاً في أخلاقك وشخصيتك عنهم.